قوائم المحتويات متاحة على ASJP المنصة الجزائرية للمجلات العلمية
الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية
الصفحة الرئيسية للمجلة: www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/552

الحقيقة النفسية للدين عند فرويد

The Psychological Truth of Religion at Freud

علي عليوة[1]*
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، سوق أهراس- الجزائر

معلومات المقال
تاريخ المقال:
الإرسال : 2019/02/11
المراجعة : 2019/11/13
القبول : 2019/11/23

الكلمات المفتاحية:
سيغموند فرويد،
الظاهرة الدينية،
الممارسات الطقوسيّة،
الطوطم،
الطابو،
التحليل النفسي.

ملخص

إن فهم الظاهرة الدّينية بمقاربات علميّة من شأنه أن يُعطي توضيحات أكثر دقة وأكثر عقلانية لتفاعل الأفراد والجماعات مع الدين والممارسات الطقوسية الدّينية، فكان التحليل النفسي لفرويد طريقة ومقاربة رائعة في هذا المجال، ولما يكتسيه التحليل النفسي من أهميّة في فهم الظواهر المعقدة والمتشابكة مثل الظاهرة الدّينية.

لذلك تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على الظاهرة الدّينية والطقوس من وجهة نظر سيغموند فرويد، محاولين أن نجمع مادة علميّة من كُتبه ومؤلفاته ومقالاته، وأيضا من الكتب التي تكلمت عنه، لذلك كان للتحليل النفسي دور كبير في قراءة الدّين من الخارج وبقاربة مُختلفة ... كما سلطنا الضوء على نشأة الدّين سواء في التّاريخ أو عند الطفل، عن المحرّم والطابو، وركّزنا على دراسات فرويد حول الطوطم وطقوسه عند القبائل البدائية.

Key words:

Freud (S),

Religious phenomenon, - Ritual practice,

Totam,

Taboo,

Psychoanalysis.

Abstract

Understanding Religious Phenomenon with scientific approaches gives more precise and rational explanations for the interaction of individuals and groups with religion and ritual and religious practices, and Freudian psychoanalysis is an excellent approach in this field ... psychological analysis to the importance of understanding religious phenomena

Therefore, this study aims to shed light on the religious phenomenon and rituals from the point of view of Sigmund Freud, trying to gather scientific information, his books and his articles ... as we focused on the genesis of the religion Both in history and in children, from the taboo, concentrating on Freud's studies on the Totam and its rituals among primitive tribes.

* Corresponding author at: University of Souk Ahras, ALGERIA
Email : dr.aliouaali@yahoo.fr

مقدمة

حين تطوّرت الفلسفة والعلوم الإنسانية والاجتماعية وغيرها من العلوم المهتمة بالكشف عن الحقائق ودراستها دراسة موضوعيّة وعلميّة، من خلال مناهجها الخاصّة ومقارباتها وأدواتها في القياس العلمي، بدأت رحلة جديدة في دراسة الظواهر الاجتماعيّة والنفسيّة بطروحات جديدة تخضع لمقاربات نظرية تجعل من كل ما يدور في بوتقة المجتمع ظاهرة جديرة بالدراسة بغضّ النظر عن قدسيتها وانغماس المجتمعات فيها.

لذلك كانت النظريات سواءا السوسيولوجية منها أو السيكولوجية تسعى دائما إلى فتح المجال بالاعتماد على الايبستمولوجيا في تفكيك الظواهر بالنقد المقدم من طرف هذه الأخيرة للمنهج وطرق القياس والبحث، فكانت دائما تسعى لتجديد مناهجها وأدوات قياسها حتى تصل إلى الدقّة الكافيّة –على الأقل- في فهم الظواهر مرتكزة على كم كبير من النتاج المقارباتي.

وكانت دراسات سيغموند فرويد جديدة وجديرة بالاهتمام على الرُغم من أنها تعرّضت لنقد كبير خاصة من الفرويديين الجدد، لكنها تُعتبر رائدة في بسيكوباطولوجيا الدين، فهما وتشريحا وتشخصا للظاهرة الدينية.

1ـ نبذة عن حياة فرويد

هو سيغيسموند شلومو فرويد Sigmund Freud (1856-1939) طبيب مختص في الأعصاب والأمراض النفسيّة، نمساوي من أصول يهوديّة، وهو -كما يُجمع المختصون في مجال الطب العصبي وعلم النفس- مكتشف التحليل النفسي والعلاج السريري والتداعي الحر.

وُلد فرويد في أسرة يهودية في بلدة بريبور التابعة في تلك الحقبة الزمنيّة للإمبراطورية النمساوية، وهي الآن تنتمي لجمهورية التشيك، كان والده تاجر صوف وكان فرويد قد نال الكثير من الاهتمام من طرف أسرته مقابل ما تمّ تقديمه لأخوته، لأنّ الأسرة لاحظت ذكاءا مبكرا لفرويد، لذلك ضحّت بكل شيء لأجل منحه التعليم الكافي، فأحتل فرويد دائما المراتب الأولى والريادية في مدرسته. دخل مدرسة الطب وكان منشغلا كثيرا بالبحث العلمي.

تأثر فرويد بـ "جوزيف برويز" Joseph Breuer وطريقته في معالجة الأمراض النفسية والهستريا عن طريق التنويم المغناطيسي، كما التقى أستاذه فيما بعد والذي تتلمذ على يده [1] جان مارتن شاركو Jean Martin Charcot وتأثّر كثيرا بمنهجه في العلاج خاصة في ما يتعلق بالعلاج الكهربائي للأعضاء المريضة والمشلولة، كما نلقى منه المعلومة التي غيّرت الكثير من مكتسباته في علم الأعصاب والأمراض النفسيّة وهي أن الأمراض الجنسية سبب في الأمرضا النفسية والعصبية.

تمّ تعينه سنة 1885 أستاذا محاضرا في أمراض الجهاز العصبي، ثمّ عمل طبيبا خاصا سنة 1886 وكان يطبق ما تعلمه من أستاذة شاركو Charcot لكنه لاحظ قصورا في المنهج ونقصا واضحا في الفعالية، فقرّر التزود بخبرات كل من الطبيبين ليبولت Liebault وبرنهايم Bernheim في مجال أمراض الهستيريا وعواملها النفسيّة، وبدأت دراسات فرويد في دراسة العوامل اللاشعورية، ومنه انتقل إلى الكشف عن علاقة الجنس بالهستريا، وبدأت شهرته تزداد حينها رغم اختلافه مع كل من سبقوه حتى من أساتذته، خاصة بعدما بدأ يمارس طريقة التداعي الحر والتحليل النفسي، وظهور مفاهيم جديدة في قاموس علم النفس والأمراض العصبيّة، مثل الكبت والشعور واللاشعور والعقل الباطن والليبدو ... الهو والأنا والأنا الأعلى.

2ـ التحليل النفسي والظاهرة الدّينية

إنّ اكتشاف التحليل النفسي بواسطة سيغموند فرويد كان له الأثر البالغ في تطوير الكثير من الدراسات التي تعتمد على الجانب النفسي في تحليل كثير من الظواهر منها الدين، لذلك تطورت العلوم الإنسانية والاجتماعية من خلال هذه الاكتشافات المهمة في التاريخ البشري أضفت الكثير من التحليل العلمي مع اكتشاف اللاشعور والتداعي الحر.

لذلك ففكرة دراسة الدين من منظور التحليل النفسي والتداعي الحر الذي أسقطه فرويد من خلال دراسة المحرم والطابو والطوطم وعقدة أوديب وغيرها فتح المجال لدراسات أكثر عقلانية ودقة في كل التخصصات الأخرى باستخدام مقاربات علمية سوسيولوجية وأنثربولوجية وتاريخية وبالاعتماد على الكم النظري والفلسفي لإيجاد تفسيرات أكثر موضوعية وعلمية... وكل هذا يدخل في بوتقة فرض منطق العقل والقياس العلمي واستخدام المنهج لتفسير الظاهرة الدينية وتأثيرها على الفرد والجماعة من خلال سن قوانين تشريعية وتنظيمية من جهة ، ورغبة الإنسان بالعيش في المقدس Le désir de l'homme religieux de vivre dans "le sacré" حسب تعبير[2] Mircea Eliade .

ومن خلال مجموع كتب سيغموند فرويد والتي تعدّت مشكلة الشخصيّة والذات والأحلام، بدأت جولة رائعة في تفسير وتأويل المظاهر النفسيّة الجماعية، في كتبه مثل "علم نفس الجماهير"[3] وكتاب "قلق في الحضارة"[4]، لكنّه ركّز على الدّين وتحليل السلوكات والطقوس الدينيّة في كتابين هما "مستقبل وهم"[5]، و"موسى والتوحيد"[6].

3ـ نشأة الدّين وتاريخه

وفي كتابه "الطوطم والمحرّم"[7] يتكلّم فرويد عن نشأة الدين والذي هو نتاج فكر العشيرة أو المجتمع، حيث كان الإنسان البدائي يعيش في شكل عشائر أو مجموعات يستأثر بها رجل قوي "الأب"، وله الحق في كل نساء الجماعة، كما أن له كامل

السلطة، فيجتمع عليه الراشدون من أبنائه الذين اشتدّ عودهم للظفر ببعض النّساء فيقتلونه، وربّما يتقاتلون فيما بعد بينهم لتقاسم السلطات في العشيرة، ويعتقد أن الإخوة الذين وحّدوا كلمتهم ليفتكوا بالأب، لا بدّ أنه قد راودت كل واحد منهم الرغبة في أن يصير مثل الأب، لهذا سعوا لإشباع هذه الرغبة، لكن هذه الرغبة لم تُشبع بسبب ضغط روابط العشيرة الأخوية على كل فرد من أفرادها .

إن الأب هو الصّورة التي صنعوا بها آلهتهم، من خلال أنّ الأب كان يمثل في مرحلة ما القوة والجبروت والحماية، فكان يمثل لهم الدرع الواقي لمجابهة المخاوف من كل شيء، بالمقابل يمثل القوة التي تسلب الحريّة وينبغي الاستسلام والانصياع لأوامرها ونواهيها، وهي التي صنعت فكرة الإله عندهم

بعد قتل الأب – حيث يمثل هذا الفعل شعور بالقوة والحرية – يبدأ الشعور بالذنب فلا يجدون مناصا دون تقرير وإيجاد سبل تمنع القتل وزواج المحارم، ويُوجد عذاب الضمير الذي يتخبّط فيه الأبناء حنينا للأب، فيلجئون إلى تخليد ذكراه بنصب تذكاري من خشب أو رمز ما أو حيوان، فيعبدونه، في إشارة من فرويد أنّ الطوطم هو تعبير حقيقي عن عقدة أوديب.

بعد موت الأب أصبحت الكثير من الأمور التي كان يحرمها هذا الأب حرمها الطوطم المترسخ في لاوعي الأبناء والأحفاد وكذلك القوانين التي سنها الأبناء داخل القبيلة وهذا ما خلق الدين، او بصيغه أخرى أن الأبناء كانوا بحاجة إلى اله سماوي ينظم حياتهم الجنسية بشكل خاص من التعاملات التي يجب على الكل الانصياع لها ولا تتأتى هذه السلطة إلا إذا كانت سلطة اله لا يمكن جداله ولا الدخول معه في صراعات فكرية أو جسدية.

إن عيش الإنسان في جماعات أو قطعان بشرية بدائية جعل من الضروري التفكير في هذا العيش المشترك لذلك كان الدين القانون الاجتماعي الذي يسير شؤون الجماعات البشرية لذلك "فالإنسان حيوان متدين".[8]

فالشّعور بالذنب الدّائم عند المتديّن ناتج عن ذاكرة لاواعيّة لعقدة أوديب، وقد جاءت الأديان بفكرة الشعور بالذنب الدّائم والمتواصل والتي تُعطي الإحساس للفرد بأنّه مقصّر في أداء واجباته وطقوسه أمام الآلهة، بل وتجعله ينسجم مع حالة الهذيان الفردي إن كان وحده أو حالة الهذيان الجماعي إن كان يؤدي هذه الطقوس جماعيا، حيث يأخذ الشّعور بالذنب حيزا كبيرا من الحياة العامة، بل ويُفقد الفرد الإحساس بالسّعادة رغم أنّه لم يفعل شيئا مشينا، لكنه يحس أن ذنوبه بلغت عنان السماء، وعليه أن يدفع الفاتورة عن كل هذه الخطايا "فلماذا يتوجب علينا دفع فاتورة بنقصان في السعادة ناجم عن تعزيز ذلك الشعور"[9].

إنّ هذه الحادثة هي سبب بداية التشريعات الاجتماعيّة بين الفاعلين في القبيلة، وهي المحظورات المسطّرة بقوانين الطوطم، هذا الطوطم الذي يمثل روح الأب الذي لا يجوز قتله ولا يمكن التفكير في قتله، وتقديم الولاء له وحمايته، من جهة ... ومن جهة أخرى تحاشي العلاقات الجنسية داخل الجماعة حتى لا تتكرّر نفس الحادثة التي أدّت بقتل الأب. لذلك كانت هذه التشريعات هي أوّل ما سطّره الإنسان للحفاظ على نسق اجتماعي يكفل حياة دون صراعات يومية داخل الجماعة مع البحث عن ذلك خارج الجماعة أو الطوطم المشترك.

بدأت تتشكّل الصراعات النفسيّة تدريجيا في حياة الإنسان البدائي متمثلة في عقدة أوديب والرغبة في البحث عن علاقات "محرّمة" داخل الجماعة من جهة، ومن جهة أخرى حادثة قتل الأب وتراجيديا تأنيب الضمير وهذه الثنائية في الأساس عند فرويد هي محرّك التّاريخ ونشأة الجماعة والمجتمع البشري، وبداية عهد جديد مع الأخلاق والدّين.

أما الأديان التوحيدية فهي فكرة تطوّرية للديانات الوثنية حسب فرويد، وهذا ما أشار إليه في كتابه "موسى والتوحيد"[10]، حيث نشأ الدّين ذو الإله الواحد في الحضارة المصريّة والتي بسطت نفوذها آنذاك في مناطق شاسعة من العالم، وأصبح من الواجب عليها تصدير دينها والذي يجب أن يواكب التطوّر الحضاري آنذاك وأن يبتعد عن الوثنية والطرق الكلاسيكية، حيث أصدر "أخناتون" أمرا بإلغاء كل الآلهة وعبادة إله الشمس فقط "أتون" الإله الواحد، والحق أن التوحيد في مصر لم يكن، وهذا بقدر ما نملك أن نفهمه، سوى انعكاس ثانوي لنزعة الدولة إلى التوسع، فالله لم يكن سوى انعكاسا للفرعون الذي يمارس سلطانا مطلقا.[11]

لذلك فلا وجود للدّين في عصر الحضارة، لأنّ الإنسان كان متمسكاً بذلك الوهم الذي ينتجه الدّين لأنه مخرجه الوحيد من أزماته، لكن كما يزعم فرويد أن هذا التاريخ الوهمي لا يزال مستقرا وقابعا في اللاشعور ينتفض من حين لآخر لإعادة بعث الوهم من جديد، لذلك في كل مرّة يأتي دين جديد يوقظ الماضي البشري ويحاول عبثا بعثه ويجد من يلبّي النداء، فتراث الأفكار الدينية يُفهم، لا فقط كتجليات للرغبات، بل أهم من ذلك، فهو عبارة عن ذكريات تاريخية.[12]

إن النظرة التراجيديّة للحياة والتي يحملها أغلب المتدينين تمثل ذلك الإحساس بالذنب القابع في اللاشعور البشري والذي لا يفارقه أبدا بل يتعايش معه ويغذّيه ويعطيه فكرة دفع ثمن خطيئة الأسلاف، وعليه أن يساهم بقسط في التكفير عن الذنب، حين يقول فرويد "... يحجب كل عصاب جرعة من الإحساس بالذنب بشكل لا شعوري، مما يجعل الأعراض بدورها أكثر استمرارًا في استخدامها كعقوبات"[13]، لذلك فالمنظومات الدّينية لا هدف لها سوف مسح أو التخفيف من آثار تلك الجرائم التي اقترفها الأسلاف

4ـ الدّين عصاب جماعي

يعتبر سيغموند فرويد أن الديّن ناتج عن تحويل لاواعي للمخاوف الإنسانية من الطبيعة ومحاولة التعامل معها وخاصّة قوى الطبيعة الشريرة، والتي لا يجد لها الفرد تفسيرات علميّة، فيبني بذلك تصوراته اللاواعية، فالدّين هو نتاج وضرورة للدفاع عن النفس ضد هذه القوى، ويلتقي الديّن والوهم في منظومة نفسية وفكريّة ويتطابقا كلياً ولا ينفصلان، فالمذاهب الدينية جميعها أوهام لا سبيل إلى إقامة برهان عليها، ولا يمكن أن يزعم أي إنسان على أن يعدها صحيحة وعلى أن يؤمن بها، فهي تشبث ديني جماعي لاشعوري بالأمس الأزلي، فديننا نأخذه من الجماعة التي نحيا فيها وبينها، ونستمده من آبائنا ومعلّمينا، ومن المعابد التي نألفها . وهكذا يزداد الشّعور بالإيمان كمحاولة للتخلّص من المخاوف والتفسيرات الخرافيّة التي رسّخها التاريخ البشري.

ويرى فرويد أنّ الطقوس الدينية ما هي إلا أمراض عصابيّة Névrose جماعية أصيبت بها الإنسانية قاطبة، فهو عصاب مرضي أو عصاب قهري، حيث يصف الأفكار الدينيّة بأنها أفكار وهميّة لا سبيل للبرهان أو التدليل عليها، فهي تفسير لاواعي للمحيط، ولعلّ الإيمان بقدرة التراث على بعث الحقيقة هو ما يسمح بأن ينشأ هذا العصاب في جماعة تؤمن بهذا الفكر.[14]

5ـ الوهم والدّين

إن الوهم عند فرويد هو نتاج الإيمان الديني ... فهو الذي يساعد الفرد على خلق عالم وهمي في أغوار النفس يتشبّع شيئا فشيئا بالوساوس والخوف مع زيادة الإيمان، يترك الإنسان مهما كان مستواه العلمي إلى الركن لجانب الأوهام والخرافات والرجوع إلى ما قبل الحضارات، فيمكن له أن يشاهد الحضارة بكل تجلياتها أمام عينه لكنه يسعى إلى الدّين الذي يُنتج له كما هائلا من الوهم، فيصنع له قوقعة أو درعا يعيش داخله كل هواجسه ويجد من يُشاركه هذا العصاب.

الوهم نتاج الدّين عند فرويد، فهو يُبدع في خلق وبناء عالم خيالي في أعماق نفسه تمتزج غالبا بالخوف والوسواس الذي يصنعه الدّين بل ويعزّزه من خلال منظومة نفسيّة قوية تسعى إلى سدّ وتعويض كل الثغرات المرضيّة وتجد لها حلولا، فيرجع الإنسان بذلك إلى مرحلة ما قبل الحضارة.

6ـ علاقة الدّين بالعصاب الوسواسي

يعتقد فرويد أن الدين كمنظومة له تاريخ يعتبره مقدّس ويعتبره مرجعية فكرية ونفسية يتغنى بها دائما، فتجد دائما الشعور بالفخر والقوة حين استرجاع المسيرة التاريخية والملاحم، حين يفرّ الفرد والجماعة من هذا الواقع إلى واقع آخر يختلف عنه في الزمان والمكان، وهذا ما يوجد حتما تطابقا بين الدّين والعصاب الوسواسي.[15] حيث يصبح الرجوع للعصور القديمة أمرا مستحبا وممتعا، فتجد القائمين بالدين يفتخرون بهذا التاريخ ويمجّدونه ويذكرون أدقّ التفاصيل عنه في كتبهم ومروياتهم وحتى حديثهم، لعجزهم عن مجارات الواقع وعدم توفّر خطاب ديني عصري وبديل، بينما يستند على كم هائل وخرافي لوقائع تاريخية لجعلها مقاربات واقعية لسد حاجيات الحاضر، لذلك فعلاقة الدّين بالعصاب علاقة تلازم ، فلا يمكن تصور دين دون عصاب ، ولا عصاب دون دين، إضافة إلى ذلك الشعور بالذنب الذي يشعر به المؤمن دائما وهو ذنب متوهّم لا شعوري لها مرجعية تراجيديّة تاريخيّة، يؤدّي فيها المؤمن كفّارات متتالية مكان الذين أجرموا من بني جنسه، فيحجب العصاب جرعة من الإحساس بالذنب بشكل لاشعوري مما يجعل الأعراض بدورها أكثر استمرارا في استخدامها كعقوبات.[16]

7ـ العصاب المستقل والفردي

إن الديّن كعصاب جماعي يُجنّب الفرد العيش في عصاب مستقل عن الجماعة، إذ يشعر الفرد بهواجسه لوحده وأن لا أحد يشاركه فيها، فيُصبح العصاب خطيرا ومؤذيا للفرد، لذلك يبحث عن حلقة يتفاعل فيها مع غيره في نفس الطقوس والهواجس والأوهام التي تكون انعكاساتها أقل حدّة من العصاب المستقل والفردي، فكلّما كان العصاب يجمع عددا أكبر من الناس كلما كانت الطقوس أكثر هذيانيّة وأكثر متعة وراحة، وكلّما كانت فرديّة ومستقلّة وشاذّة كلما كانت أكثر حدّة وإيذاءا.

فالمجتمع لا يقبل أن يجد أفرادا داخله لا يمارسون نفس طقوسه حتى وإن كان هو على صواب وهم على خطأ، لذلك يمارس المجتمع كل أنواع الضغوط على الفرد لسحبه تحت مظلته حتى يُصبح "سويا" مثلهم !! ذلك فالفرد السوي هو من يمارس طقوس الجماعة وينخرط في عصابها، "ففي حالة العصاب الفردي، يظهر مؤشر قوي يحيلنا على تناقض ينشأ بين المريض ومحيطه الذي يُعتبر "سويًّا"[17]

8ـ أهداف الأديان عند فرويد: تهدف الأديان والآلهة إلى:[18]

أ- **مجابهة قوى الطبيعة**: إنّ عدم معرفة المحيط الطبيعي، والظواهر سواءا الطبيعية مثل الرعود والأمطار والأعاصير والبراكين والزلازل ... أو الظواهر الفلكيّة مثل الكسوف والخسوف و... وعدم إيجاد تفسير علمي لها يحرّض العقل على الفكر الخرافي لتأويلها، فيبحث الفرد عن مجابهة هذه الظواهر في لاهوته، فيعطي لها صبغة وتأويلا خرافيا أو ميتافيزيقيا لا يمكن قياسه لكن يمكن اعتقاده "الإيمان به" فقط.

ب- **المصالحة مع الأقدار السيئة**: تعطي الأديان بدائل نفسيّة "إيمانية" للأقدار السيئة، وتوفّر قابليّة قوية لقبول هذه الأقدار مهما كان سوؤها، وخاصة الموت، فهي قدر من الآلهة، ومكتوبة في مكانها وزمانها ولا مفرّ منها، لذلك تعطي دعما نفسيا وقبولا تامين.

إنّ الأقدار السيّئة التي تقف حائلا بين السّعادة وبين الأفراد تجد في الدين – الهذيان الجماعي- مضادا فعالا لهذا الواقع وهي طريقة تفصل الواقع تماما عن الذّات "طريقة ترى في الواقع العدو الأوحد، ينبوع كل ألم، فبما أن الواقع يجعل حياتنا مستحيلة لا تطاق، فلا بد من قطع كل صلة به، إذا كنا نحرص على السعادة بصورة من الصور ... متى ما سعت الكائنات البشرية بأعداد كبيرة إلى تأمين السعادة لنفسها وإلى الاحتماء من الألم بواسطة تشويه خرافي للواقع (الدين)، والحال أن أديان البشرية يجب أن تعتبر هذيانات جماعية من هذا النوع"[19].

ج- **التعويض عن الأوجاع والحرمان**: لا تكتفي الأديان بترسيخ معتقد قبول القدر السيّئ فقط، بل تتعدى حدود ذلك بكثير في التعويض عن الأوجاع والحرمان والفقر وغيرها، تعريضا مستقبليا في الحياة أو بعد الموت، فتعطي آليات المجابهة عن طريق الاعتقاد والصبر والإيمان، ثم تعطي آليات الجزاء.

فالأديان تدّعي أنّها تفكّ كلّ ألغاز الكون وتفسّره بالمقابل تطمئن المؤمن بوجود رعاية ربّانية فيها العطف والرحمة، وتسهر العناية الإلهية على التعويض لما يكابده في هذه الحياة، وذلك كله بعيد عن الواقع، بحيث يحزّ في نفس كل صديق مخلص للبشرية أن يفكر بأن الغالبية العظمى من بني الإنسان لن تستطيع أبدا الارتفاع فوق هذا التصور للوجود.[20]

الدّين هذيان يستثني العقل، ويشوّه الواقع ويعطي بدائل نفسيّة ووهميّة للحياة وللسّعادة، "فالدين يضر بلعبة التكيف والانتخاب تلك، إذ يفرض على الجميع، وعلى نسق واحد، طرقه الخاصة للوصول إلى السعادة وللفوز بالمناعة ضد الألم. وتقوم خطته على تخفيض قيمة الحياة وعلى تشويه صورة العالم الواقعي تشويهاً بالغاً، وهذا نهج يتخذ مسلمة له زجر العقل وتخويفه، وبهذا الثمن يفلح الدين، بإلباسه أتباعه بالقوة ثوب طفولة نفسية وبزجهم جميعاً في هذيان جماعي"[21]

إن ما يتعرّض له الفرد من ضغوطات وصعوبات ومشاق تفسد عليه متعته بالحياة ويكون لها أثر سلبي في حياته، يسعى الدين لإعطاء "المسكّنات"، والتي تعمل بمفعول الدواء أو المخدّر الفعّال، فحياتنا كما هي مفروضة علينا، ثقيلة الوطء، تغل أعناقنا بكثرة من المشاق والخيبات والمهام التي لا نستطيع لها احتمالا، فلا غنى لنا عن المسكنات، فالدين يلعب دور المسكّن والمسكر للإنسان، ومفعول العزاء والسلوان الذي يقدمه الدين للإنسان يمكن المقايسة بينه وبين مفعول المنومات[22]... ولعل المسكّنات على ثلاثة أنواع[23]:

أ- **مسكّنات الهيّة قويّة**: تتيح لنا أن تعتبر أن بؤسنا هيّن وبسيط وهو مجرّد ابتلاء أو امتحان، لذلك تجد المتديّن لا يُبالي بالآلام الحياتيّة أو الفقر والمرض، بل يعتبرها فترة انتقالية لعوالم أخرى خالدة، وما هي إلا امتحان لا غير، لذلك لا يتأثّر بها ويعتبرها شيئا طبيعيا بل صحيا.

ب- **الإشباعات البديلة**: تتيح الإشباعات التخفيض من قسوة الحياة والبؤس عن طريق استخدام المسكنات الإلهية القويّة، فكل بُؤس وشقاء يقابله إشباع بديل في الضفّة الأخرى، فالفقر يقابله الغنى سواءا في مدّة قريبة أو بعيدة، أو حتى بعد الموت، وكذلك المرض وكل ملذات الحياة.

ج- **مخدّرات مفقده للإحساس**: يؤكد سيغموند فرويد أن الإنسان يمكنه أن يتعايش مع هذه الحياة حين يتخلص نهائيا من عالم الغيب حيث يتحمل كل المشاق، بل ويقف لها الند للند ويجابهها بوسائله المتاحة بتوفير الأسباب والوصول إلى النتائج، وعدم إسنادها إلى أمور ميتافيزيقية، ولاشك في أن الإنسان سيتوصل، يوم يقطع رجاءه من عالم الغيب أو يوم يركز كل طاقاته المحررة على الحياة الأرضية ، إلى أن يجعل الحياة قابلة للاحتمال من قبل الجميع.[24]

9- نشأة الدّين عند الطفل

إن نشأة الدين عند الطفل ترتبط ارتباطا وثيقا بالحاجة للحماية في مرحلة الطفولة مما يؤدي إلى وجود الآلهة، فالتعليل النفسي التحليلي لتكوين الأديان هو هو نفسه، كما هو متوقع، المساهمة الطفلية في تعليله الظاهر ... حين يتبين الطفل، وهو يشب ويترعرع، أنه مقضي عليه بأن يبقى أبد حياته طفلاً وأنه لن يكون في مقدوره أبداً أن يستغني عن الحماية من القوى العليا والمجهولة، يضفي عندئذ على هذه القوى قسمات وجه الأب، ويبتدع لنفسه آلهة، آلهة يخشى جانبها ويسعى إلى أن يحظى بعطفها ويعزو إليها في الوقت نفسه مهمة حمايته، وهكذا يتفق حنين الطفل إلى الأب مع ما يحس به من حاجة إلى حماية بحكم الضعف البشري، كما أن رد فعل الطفل الدفاعي حيال شعوره الضيق يتفق ورد فعل الراشد حيال الشعور بالضيق الذي يخالجه بدوره ، والذي يتولد عنه الدين وسماته المميزة.[25]

ومن خلال هذا التفسير يؤكّد فرويد على أنّ نشأة الدين هي حاجة نفسيّة يبتدعها الطفل نتاج الخوف والقلق اللذان يسيطران عليه في مرحلة عمرية معيّنة والبحث عن مصادر حماية وإسقاطات لاواعيّة من الواقع في عملية صنع الآلهة التي تشبه إلى حد كبير القوة التي تحمي الطفل في الواقع وهي الأب، فالدين إذا ناتج عن القلق الإنساني إزاء المخاطر الحياتية، وحين وجّه أنظارنا نحو التكوين النفسي للأفكار الدينية، فهذه الأفكار التي تطرح نفسها على أنها معتقدات، ليست خلاصة التجربة أو النتيجة النهائية للتأمل والتفكير، إنما هي توهمات، تحقيق لأقدم رغبات البشرية وأقواها وأشدها إلحاحاً، وسر قوتها هو قوة هذه الرغبات، وبالأصل نحن نعلم ذلك، فالإحساس المرعب بالضائقة الطفليّة أيقظ الحاجة إلى الحماية والحماية بالحب، وهي حاجة لباها الأب وإدراك الإنسان أن هذه الضائقة تدوم الحياة كلها جعله يتشبث بأب، أب أعظم قوة وأشد بأساً هذه المرة، فالقلق الإنساني إزاء أخطار الحياة يسكن ويهدأ لدى التفكير بالسلطان الرفيق العطوف

للعناية الإلهية، كما أن إرساء أسس نظام أخلاقي يكفل تلبية مقتضيات العدالة، هذه المقتضيات التي لبثت في غالب الأحيان غير متحققة في الحضارات الإنسانية، ثم إن إطالة الحياة الأرضية بحياة مستقبلية تقدم إطار الزمان والمكان الذي ستحقق فيه تلك الرغبات[26].

فالأب يمثل بالنسبة للطفل القوة المطلقة، هو رمز لله، هو مشروع إله متسلط مسيطر يستطيع فعل كل شيء في وجه نظر الطفل، وسيطرة الأب على الطفل تجعل الطفل يخضع ويتأثر داخليا، لذى تبدأ مرحلة الصراع النفسي الداخلي في تصور للإله على شاكلة الأب، والذي يحمل النقيضين، السلطة والحنان، الحرية والعبودية، الحب والكراهية، هذا الأب الذي يغدق على ابنه بتوفير كل حاجياته ورعايته، بالمقابل يسلبه حريّته بتعاليم ونظام يفرضه لوحده دون الحاجة للتشاور، إنها شخصية الإله الذي يصنعه الطفل في مخياله، إله يعطي النعم ويرعى ويلبي كل الحاجيات، لكن بالمقابل إله يسلب الحريّة والذات تحت مسمى المحرمات والنواهي والممنوعات.

لذلك يربط سيجموند فرويد الدين بالسلطة الأبوية ، فصورة الإله ما هي إلا إسقاط لصورة الوالد أو الأب المتسلط والذي يراه الطفل اله مصغرا ، لذلك يتخلص الفرد من الشعور و التصور الديني للإله بعد وفاة والده أو انه يكون متخلصا من هذا الشعور الديني إذا كان الوالد غير متسلط داخل الأسرة ، فتتماهى صورة الإله في ذهنه وفي عقله الباطن.

ويعتبر فرويد أن عقدة أوديب هي منشأ كل عاطفة دينية أو شعور ديني "ففي عملية التحرر البدائية التي يشكلها قتل الأب من جانب أبنائه يكمن الأصل الأكثر قدماً للدين، إن كل المنظومات الدينية ليس لها من هدف سوى مسح آثار تلك الجريمة والتكفير عنها والذي يتجلى من خلال "الطوطم والحرام" [27] "فالشعور المجرب تجاه الطوطم كان أكثر قوة من الكره العنيف للأب، وبذلك أليست عبادة الأب في العقيدة الدينية هي عبادة إله شخصي ليس سوى الأب الممثلن"[28].

إن ثورة الأبناء على ذلك الأب البدائي هو ثورة على سلطة الإله وعلى الشعور الديني، لذلك فقتل الأبناء لوالديهم هو قتل للإله استبدال للقوانين الدينية بقوانين وضعية وتشريعات اجتماعية على نحو مؤسس على مجموعة من الطابوهات والمحرمات.

إنّ الدين يستمد فاعليته من الانفعالات الداخلية المتولدة من حالة الكبت الجنسي في مرحلة الطفولة ... فالاعتقاد بالله يعكس ميول ورغبات كامنة في اللاشعور تظهر على شكل حاجة إلى أب سماوي يملك قدرة كبيرة لحماية الإنسان، كما كان الطفل يشعر بالحاجة للأب لحمايته".[29]

10- تعريف الطوطم وأنواعه

أول من تكلم عن مفهوم الطوطم هو عالم الأنثروبولوجيا "ماك لينان" حين درس بعض القبائل البدائية في ممارسة طقوس الزواج التي ترتبط بالوشم في إشارة إلى قوة الجسد على التحمل، كلها كانت طقوس طوطمية بدائية وضحها أكثر دوركايم وسيغموند فرويد.

وذهب فرويد إلى أن الطوطم هو مرحلة مبكرة وبدائية للممارسات الطقوسية الدينية، والتي تطورت بعد ذلك بفضل تطور الحياة الاجتماعية والحضارية وفرضت نسقا جديدا من الأديان يتماشى مع تلك الحضارات.

أما الطوطم بشكله البدائي فكان بمثابة نقطة انطلاق لسن القوانين والتشريعات الدينية المنظمة للعلاقات الاجتماعية والاقتصادية وتقسيم العمل أيضا داخل القبيلة، ولذلك "تشكل التبعية للطوطم قاعدة لكل الإلزامات الاجتماعية".[30]

فالطوطم في القبيلة هو الدستور الروحي، وهو التشريع الاجتماعي الذي اتّفقت عليه جماعة اجتماعية فيمكن أن يكون نباتا أو حيوانا أو شيئا آخر ... لا يجوز قتله أو أكله أو تدنيسه، فقد اخذ صفة القداسة شيئا فشيئا داخل الجماعة، فهو يفرض قوانين عليها كي تتعايش مع بعضها البعض، يجزي ويُعاقب بل وتُصيب لعنته كل من خرج على التشريع والقانون العام للجماعة.

بدأ الطوطم بالتحريم والتدنيس والتقديس، فحرم الزواج داخل القبيلة "زنا المحارم" ، حتى لا يتكرر الصراع الجنسي داخلها "...إن الوصيتين الرئيسيتين في الطوطمية، القاعدتين المحرمتين اللتين تؤلفان نواتها، وهما تحضير قتل الطوطم وتحضير الزواج من امرأة تنتمي إلى الطوطم نفسه، تتطابقان من حيث مضمونها مع جريمتي أوديب".[31]

وحرم أكل لحوم بعض الحيوانات المقدسة، والمدنسة أيضا، أما المقدسة فأعطيت لها صفة الطوطم الذي يرسم شكل العلاقات الاجتماعية، ويفرض سطوته الدينية من خلال روح الأب والذنب، بل والخوف من تسليط عقوبات تطال الأفراد والجماعات الخارجين عن سلطة الطوطم.

يتم في الممارسات الطقوسية الطوطمية ذبح الحيوان الطوطم وأكل لحمه وشرب دمه في اعتقاد منهم بتقاسم قوة الطوطم وقداسته ، في طقوس حزينة جدا تعبر عن التكفير بالذنب الذي اقترفه الأبناء ، وما يلبث ذلك الجو الحزين حتى ينفلت إلى رقصات صاخبة وجو احتفالي هستيري ، يطلق فيه الأفراد العنان لأنفسهم لإشباع جنسي بقول فرويد لكن الحداد لا يلبث أن يعقبه احتفال صاخب ومرح تنفلت فيه جميع الغرائز من عقلها ويفسح فيها المجال أمام شتى ضروب الإشباع.

أعتقد أن ذبح الطوطم وشرب دمه وأكل لحمه ما هو إلا محاكاة على قتل الشعور الديني الذي يصحبه الشعور بالذنب، فبعدما صرح فرويد بفرحة الإنسان بموت والده الذي يمثل له سلطة ردع تمنعه عن ممارسة حاجياته وإشباعاته الجنسية، ها هي فرحة أخرى أكثر قوة ، وهي مقتل الطوطم وسلطة الدين ، لذلك تكون الطقوس التي تلي مباشرة مظاهر الحزن هي طقوس الخروج عن سلطة الإله وكل الطابوهات

والمحرمات، وبعد هذه الوليمة الطوطمية يشعر الممارس لهذه الطقوس أنه تخلص من سلطة الدين.

لذلك فالهدف من هذه الطقوس الاحتفالية هو الاحتفاظ بذكرى الانتصار على الأب والتي تحمل في نفس الوقت شعور الندم والذنب، "[32]... ومن الآن فصاعدا سينهض المجتمع على أساس خطيئة مشتركة، على أساس جريمة اقترفت بالتكافل؛ وسينهض الدين على أساس الشعور بالذنب والندامة، وستنهض الأخلاق على أساس ضرورات هذا المجتمع." [33]

لذلك يرى فرويد أن فكرة الندم والذنب نتاج لقتل الأب المترسخ في العقل الباطن المتوارث، وأن الخوف ما هو إلا فكرة عن الكبت الجنسي ... فكلما زاد الكبت زاد التدين والعكس صحيح.

11ـ أنواع الطوطم

أ- الآرونطا "Arunta : وهو طوطم يصنع من الخشب أو الحجر يكون في الغالب بيضاويا أو مستطيلا، يوضع في مكان واضح ليراه كل سكان القبيلة ، يمارسون الطقوس أمامه يوميا فرادا وجماعات، ويتعلم الصغار من الكبار تلك الطقوس، كما تنقش عليه بعض الرسومات في بعض الأحيان ، وكانت تتمتع بالقداسة داخل القبيلة ولا يُسمح إلا للمتطهرين بلمسها، ولا يسمح للنساء بلمسها ولا برؤيتها ، ومن قامت بذلك فجزاؤها الموت طعنا بالرماح ، ويتم الاقتراب منها بالتمتمات السحرية.

كما أن الآرونطا كانت تحفظ في أماكن هي أيضا مقدسة يمنحها الأفراد المنخرطون في الطوطم صفة شفاء المرضى والجرحى ... وتساعد على منح القوة والصبر ، والدعاء بضعف الأعداء ، وقوة ضربات أفراد القبيلة.

ب- النورتونجا: Nortunja وهو طوطم قبائل الآرونطا الشمالية، وكانت تأخذ شكل عصا أو مجموعة عصي متعامدة على شكل صليب توضع عليها ضفائر الشعر أو جلود الحيوانات والريش.

خاتمة: من خلال هذه الورقة البحثية أردنا أن نسلط الضوء على الظاهرة الدّينية من مقاربة بسيكولوجية، في قراءة للتحليل النفسي عند فرويد وعلاقته بالدين، والتنشئة الاجتماعية والنفسية.

فصورة الإله عند فرويد ترتبط بالأب، والذي يمثل صورة مصغرة للإله في مستوى تفكير الأفراد، في محاولة من فرويد لربط الدين والشعور الديني بعقدة أوديب وندم الأبناء على قتل الأب، هذه الحادثة التي ولّدت الدين والطوطم، والذي بدوره خلق الطابو ، وخلق منظومة اجتماعية تزداد قانونا وتشريعا كلما زادت الحضارة.

12ـ خاتمة

إنّ محاولة تلخيص وإسقاط المقاربة النفسيّة الفرويدية ليست بالأمر الهيّن لما تركهُ هذا الأخير من إرث نظريّ مازال لحد السّاعة يُثير دهشة المُختصّين في علم النفس وعلوم الأعصاب وعلم النفس الاجتماعي وغيرها من العلوم، حاولنا في هذا المقال المُقتضب أن نتكلّم عن الحقيقة النفسيّة للدّين كما يراها سيغموند فرويد، في أنّ الدين عصاب جماعي أصاب البشريّة قاطبة مُرجعا أسباب ظهور الدّين نتيجة لعوامل تاريخية وتراكمات نفسيّة وعقدة أوديب، حين قتل الأبناء الأب الذي كان مُستحوذا على الجنس داخل القبيلة، واستأثر الأبناء بالإناث، بعدها ندموا ندما شديدا على فعلتهم تلك وحزنوا على مقتل أبيهم وأقاموا له طوطما يستغفرون عنده كل ما رأوه صباحا ومساءا، وحرّموا زنا المحارم وبدأت رحلة الدّين تتوارثها الأجيال والبشرية.

كما حاولنا أن نتكلم عن الديانات القديمة والبدائية وارتباطها بالحضارة كما يتصورها سيغموند فرويد، وأنّ الأديان هي نتاج إفرازات الحضارة وقيمتها، وكلما كانت الحضارة أكثر اشعاعا كلما تخلّت عن الديانة وحاولت خلق ديانة أخرى تتماشى وتطوّرها، دون أن ننسى الفكرة الجوهريّة التي ركّز عليها فرويد وهي نشأة الدين عند الطفل من خلال التنشئة الاجتماعية وفكرة الإله المتجسّد في الأرض والأسرة.

تضارب المصالح

❖ يعلن المؤلف أنه ليس لديه تضارب في المصالح.

المراجع

1. البعلبكي، منير (1992). معجم أعلام المورد، الطبعة الأولى، بيروت، دار العلم للملايين، صفحة 255.

2. Mircea. Eliade. (1965). « Le sacré et le profane », Collection FOLIO/ ESSAIS. n° 82. Editions Gallimard. Paris. P 31.

3. Sigmund Freud (1924). Psychologie collective et analyse du moi. Paris. Payot 1924.

.4. Sigmund Freud (1929). Malaise dans la civilisation. Trad.: CH. et J. ODIER (1934). Paris. Payot.

5. Sigmund Freud (1927). L'Avenir d'une illusion. Trad. Marie Bonaparte. PUF. Paris.

6. Sigmund Freud (1948). Moïse et le monothéisme. Trad. Anne Balseinte. PUF. Paris.

7. Sigmund Freud (2001). Totem et tabou. Payot. Paris.

8. Samuel. Albert. (1987). « Les religions aujourd'hui » les Editions ouvrières Paris France. et Vie ouvrière Bruxelles Belgique. et les Editons Chronique Sociale Lyon France. P 145.

9. سيغموند فرويد.(1982)، قلق في الحضارة، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الطليعة للنشر والإشهار، بيروت، ص 103.

10. Sigmund Freud (1948). Moïse et le monothéisme. Trad. Anne Balseinte. PUF. Paris. P154.

11. سيغموند فرويد، موسى والتوحيد، ترجمة: جورج طرابيشي (2004)، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ص 92.

12. Sigmund Freud. L'Avenir d'une illusion. Op.cit. P 43.

13. Sigmund Freud. Malaise dans la civilisation. Op.cit. p 65.

14. بيرت، سيرل (1985)، علم النفس الديني، ترجمة: سمير عبده؛ ط 1، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ص 15.

15. Sigmund Freud. L'Avenir d'une illusion. Op.cit. P44.

16. Sigmund Freud. Malaise dans la civilisation. Op.cit. P 65.

17. Ibid. P 69.

18. سيغموند فرويد (2014)، مستقبل وهم، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة للنشر والإشهار، بيروت، 2014، ص 29.

19. سيغموند فرويد (1982)، قلق في الحضارة، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الطليعة للنشر والإشهار، بيروت، 1982، ص 29-30.

20. سيغموند فرويد (1982)، قلق في الحضارة، مرجع سبق ذكره، ص 19.

21. نفس المرجع ، ص 34-35.

22. نفس المرجع ، ص 51.

23. نفس المرجع ، ص 21-20.

24. سيغموند فرويد، مستقبل وهم، مرجع سبق ذكره، ص 68-69.

25. نفس المرجع ، ص ص 32-33.

26. سيغموند فرويد، مستقبل وهم، مرجع سبق ذكره، ص 41.

27. ميشال، مسلان (2009)، علم الأديان مساهمة في التأسيس، ترجمة: عزالدين عناية، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، ومنشورات كلمة، ص143.

28. نفس المرجع، ص144.

29. محمودي، أبو الفضل (2009): "منشأ الدين"، ضمن كتاب جماعي: "الفكر الديني وتحديات الحداثة"، تعريب: أحمد القبانجي، الطبعة الأولى، مؤسسة الانتشار العربي بيروت، ص 39.

30. Sigmund Freud, Totem et Tabou, op.cit, P 11.

31. Ibid. p 8.

32. سيغموند فرويد (2015)، الطوطم والطابو، ترجمة جورج طرابيشي، ترجمة: جورج طرابيشي، دار مدارك للنشر ، ص 119.

33. نفس المرجع، ص 119

كيفية الإستشهاد بهذا المقال حسب أسلوب APA:

المؤلف علي عليوة، (2020)، الحقيقة النفسية للدين عند فرويد، مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، المجلد12، العدد 01، جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف، الجزائر، ص.ص: 71-78